

التقرير  
الاستراتيجي

# النظام العربي والإقليمي: اللاعبون والاتجاهات في مرحلة إنتقالية



(2016-2015)

المركز الإستشاري للدراسات والتوثيق  
the Consultative Center for Studies and Documentation



---

النظام العربي والإقليمي:  
اللاعبون والاتجاهات في مرحلة إنتقالية

(2016-2015)



النظام العربي والإقليمي:  
اللاعبون والاتجاهات في مرحلة إنتقالية  
(2016-2015)



المركز الإستشاري للدراسات والتوثيق  
the Consultative Center for Studies and Documentation



## النظام العربي والإقليمي: اللا عبون والاتجاهات في مرحلة إنتقالية (2015-2016)

صادر عن: المركز الإستشاري للدراسات والتوثيق

هذا التقرير هو ثمرة جهود تضافرت في الكتابة والبحث والتحليل المعمق بإشراف المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق، وقد أسهم في إثراء مادة التقرير بالأفكار والتحليلات القيمة نخبة من الكُتّاب والمفكرين العرب والأجانب. إن جميع الأبحاث والدراسات والآراء الواردة في هذا التقرير لا تُعبر إلا عن وجهة نظر كُتّابها.

المشرف العام: عبد الحليم فضل الله

مدير التحرير: حسام مطر

الإخراج والتنضيد: أحمد شقير

الطباعة: مطبعة الحرف العربي

التوزيع: لبنان والعالم العربي

تاريخ النشر: آب ٢٠١٧

الطبعة: الأولى.

القياس: 21x29

### حقوق الطبع محفوظة للمركز

جميع حقوق النشر محفوظة للمركز. وبالتالي غير مسموح نسخ أي جزء من أجزاء التقرير أو اختزانه في أي نظام لاختزان المعلومات واسترجاعها، أو نقله بأية وسيلة سواء أكانت عادية أو إلكترونية أو شرائط ممغنطة أو ميكانيكية أو أقراص مدمجة، استنساخاً أو تسجيلاً أو غير ذلك إلا في حالات الاقتباس المحدودة بغرض الدراسة والاستفادة العلمية مع وجوب ذكر المصدر.

العنوان: بئر حسن - جادة الأسد - خلف الفانترزي وورلد - بناية الورود - الطابق الأول.

البريد الإلكتروني: dirasat@dirasat.net www.dirasat.net

P.o.Box: 24 /47 Baabda 10172010

هاتف: 01/836610

فاكس: 01/836611

خليوي: 03/833438

## ثبت المحتويات

7	..... المقدمّة / عبد الحليم فضل الله
11	..... المدخل / حسام مطر
19	..... جيوبوليتيك الأدوار الوازنة في غرب آسيا والعالم العربي جمال واكيم
31	..... مصر في سياق الفوضى الإقليمية/ جمال واكيم
33	..... ماذا تعني عودة تركيا وإيران إلى حضن المشرق الإسلامي؟ سعد محيو
47	..... العراق وثمان الاستقرار الإقليمي المفقود/ياسر عبد الحسين
55	..... «العثمانية القديمة» ... تركيا في نظام إقليمي قيد التشكّل محمد عبدالقادر خليل
74	..... رؤية حزب الله للعلاقات العربية الايرانية/النائب محمد رعد
77	..... أفق الحرب والتسوية السياسية في اليمن فيصل جلول
89	..... المقاربة الإسرائيلية للتحوّلات الإقليمية في الشرق الأوسط أكرم عطاالله ويحيى أبو عودة
103	..... الانتفاضة الشعبية الفلسطينية: بداية مسار ثوري؟ منير شفيق
113	..... العمق الإفريقي ودوره في إعادة بناء النظام الإقليمي موديبو دانيون
123	..... بلدان المغرب العربي في مواجهة تداعيات الاضطرابات العربية جابر القفصي
148	..... الاتفاق النووي بين إيران والمجموعة الدولية/ حسن بهشتي بور

- 153 ..... روسيا في غرب آسيا والعالم العربي: معبر نحو النظام الدولي  
وسيم قلعية
- 166 ..... روسيا وأميركا في المنطقة: «حدود التوافق والاختلاف» / يوست هلترمان
- 171 ..... «مبادرة الحزام والطريق» أهمية الشرق الأوسط في الاستراتيجية الصينية الجديدة  
رضوان جمول
- 181 ..... صعود تنظيم داعش وانحداره مقارنة بديلة: تناسل الأطياف السلفية  
خالد عايد
- 197 ..... هل فشل الإسلام السياسي حقاً؟ / راشد الغنوشي
- 201 ..... الإخوان المسلمون في مصر: زمن الأسئلة الصعبة  
علي الرجال
- 217 ..... المؤسسة الوهابية وهاجس تحولات العرش السعودي / المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق
- 223 ..... ملف التقرير / مساهمات إستشرافية حول النظام الإقليمي الناشئ
- 225 ..... المقاومة والشراكة ضرورة الاستقلال والاستقرار  
السيد إبراهيم أمين السيد
- 229 ..... التحولات في الشرق الأوسط  
عدنان منصور
- 235 ..... مستقبل الشرق الأوسط: تفاؤل يجب أن يبقى ممزوجاً بالحدذر الشديد  
جورج قرم
- 239 ..... تحولات البيئة الإقليمية في غرب آسيا، شمال أفريقيا  
ديغانغ صان
- 241 ..... مستقبل النظام الإقليمي ودور القوى الإقليمية الرئيسية في إعادة بنائه / عبد الحليم فضل الله
- 247 ..... في النظام الإقليمي في الشرق الأوسط: التحولات والإشارات والتنبيهات  
عقيل سعيد محفوظ
- 251 ..... العصر الروسي في الشرق الأوسط!  
مصطفى اللباد
- 255 ..... تحولات في الجغرافيا السياسية الإقليمية  
قاسم عز الدين





# جيوبوليتيك الأدوار الوازنة في غرب آسيا والعالم العربي

جمال واكيم

أستاذ العلاقات الدولية في الجامعة اللبنانية.

## المقدمة:

جون كينيدي في العام 1963 أدى إلى تراجع هذه الحركة ووقوع معظم هذه الأقطار تحت النفوذ الأميركي، فيما نجت بعض هذه الدول كليبيا واليمن الجنوبي وسورية بانحيازها إلى المعسكر الاشتراكي خلال الحرب الباردة. ولكن مع انهيار كتلة الدول الاشتراكية والاتحاد السوفياتي في العام 1991 إثر هزيمتها في الحرب الباردة أضحت الولايات المتحدة زعيمة العالم بلا منازع، لكن إلى حين. فما هي العوامل والمؤثرات التاريخية والجيوبوليتيكية التي تتحكم برؤى القوى الفاعلة بشأن النظام الإقليمي في غرب آسيا والعالم العربي؟

## أولاً: واشنطن والقلق المزمّن من أوراسيا

كانت واشنطن تعرف حق المعرفة أن عدداً من القوى من بينها الصين وروسيا وأوروبا واليابان والهند والبرازيل كانت في طريقها لتبوء دور عالمي، وكان همّ القادة

إن النظام الإقليمي الذي ساد في المنطقة العربية نتج بشكل كبير عن الحرب العالمية الأولى وانهيار الدولة العثمانية. وأدى هذا الانهيار عقب هزيمة العثمانيين في الحرب العالمية الأولى إلى اقتسام الحليفين الفرنسي والبريطاني لممتلكات هذه الدولة في المشرق العربي<sup>1</sup>. والجدير ذكره أن النظام الإقليمي لم يكن انعكاساً للإرادة الاستعمارية البريطانية والفرنسية فقط بل كان ناتجاً عن اصطدام المشاريع الاستعمارية لهاتين الدولتين بإرادات وطنية ظهرت في البلدان التي وقعت تحت الاستعمار. في العام 1948، قامت «دولة إسرائيل» على أرض فلسطين بعد تهجير الكثير من شعبها منها في الوقت الذي كانت فيه الدول العربية قد بدأت تتحرر من الاستعمار. وقد قادت مصر حركة التحرر في المنطقة العربية وفي أفريقيا ما أدى إلى تحرر معظم أقطارها من الاستعمار.

لكن اصطدام حركة التحرر هذه بصعود المشروع الإمبراطوري الأميركي خصوصاً بعد اغتيال الرئيس

1 - Zeine Zeine, The Struggle for Arab Independence (Beirut: Khayat, 1960)

الأميركيين ضمان بقاء بلادهم القوة الأولى في العالم. والجدير ذكره أن التفكير الجيوسياسي الأمريكي كان متأثراً باعتبار الولايات المتحدة قوة بحرية وريثة لبريطانيا العظمى في سيادة البحار، التي هي المفتاح الرئيسي لفرض السيادة العالمية كما يعتبر الأدميرال الأمريكي الشهير ألفرد ثاير ماهان.<sup>2</sup>

وتأثر التفكير الأمريكي أكثر ما تأثر بالنظريات الجيوسياسية للعالم البريطاني الشهير هالفورد ماكيندر<sup>3</sup> الذي اعتبر أن السيطرة على أوراسيا مفتاح السيطرة على العالم. وفي مقالته الشهير حول المحور الجغرافي للتاريخ اعتبر ماكيندر أن قلب أوراسيا الذي يضم روسيا كان دائماً منطلقاً لصعود إمبراطوريات برية كبرى كانت تهدد بفرض سيطرتها على مجمل أوراسيا وبالتالي تهدد بعزل القوى البحرية وآخرها بريطانيا تمهيداً لاحتلالها. واعتقد ماكيندر أن من مصلحة بريطانيا عدم توحيد أوراسيا تحت مظلة قوة وحيدة كما آمن بضرورة منع أي قوة برية في أوراسيا من الخروج بحرية إلى طرق المواصلات البحرية.<sup>4</sup>

وأثر ماكيندر في المفكرين الجيوسياسيين الأميركيين وعلى رأسهم نيكولاس سبايكمان الذي كتب خلال الحرب العالمية الثانية عن الخطر الذي يهدد الولايات المتحدة في حال اتحدت أوراسيا تحت مظلة قوة واحدة، لأنه في هذه الحالة ستعزل الولايات المتحدة في شمال أميركا وستصبح محاصرة من الشرق والغرب من قوة معادية. إلا أن سبايكمان رأى أن التهديد بتوحيد أوراسيا يمكن أن ينشأ ليس انطلاقاً من قلب أوراسيا وهي روسيا بل من المناطق المحاذية لها والتي يسميها مناطق الأطراف.<sup>6</sup>

وتأثر زبغنيو بريجنسكي، المستشار السابق للأمن القومي الأمريكي في عهد الرئيس جيمي كارتر، بنظرية سبايكمان إذ اعتبر أنه لكي تبقى الولايات المتحدة على زعامتها للعالم فإن عليها أن تبقى أوروبا الغربية تحت مظلتها لأنها تشكل جسر عبور لواشنطن إلى البر الأوراسي. مشيراً إلى ضرورة ألا يقع الشرق الأوسط ووسط آسيا تحت سيطرة أي من القوى الأوراسية وألا تخرج الولايات المتحدة من تلك المنطقة وأن تبقى محكمة للتناقضات فيها.<sup>7</sup>

مع مرور الوقت تبين أن الربيع العربي لم يجر بمعزل عن تغيرات دولية وإقليمية لم تبق محصورة في المنطقة العربية، بل انتقلت عدواها جنوباً إلى القرن الإفريقي وشمالاً إلى أوكرانيا. وبالتالي تبين أن «الربيع العربي» ما هو في جانب كبير منه إلا صراع بأشكال أخرى بين القوى الكبرى في الوقت الذي يتحول فيه النظام الدولي من نظام يهيمن

”الربيع العربي“

ما هو في جانب

كبير منه إلا صراع

بأشكال أخرى بين

القوى الكبرى

2 – Alfred Thayer Mahan, The Influence of Sea Power Upon History: 1660 – 1783, (Boston: Brown and Company, 1918), p. iii

3 – السير هالفورد ماكيندر (1861-1947) جغرافي بريطاني، متخصص في الجغرافيا السياسية الجيوبوليتيكا، صاحب الكتاب الشهير (المحيط الجغرافي للتاريخ).

4 – Halford Mackinder: The Geographical Pivot of History, the geographical journal, vol 170, no 4, december 1904, pp. 298 – 300

5 – نيكولاس سبايكمان (Nicholas J. Spykman) هو جيوسراتيجي هولندي-أميركي، ويعتبر أحد مؤسسي المدرسة الواقعية الكلاسيكية في الخارجية الأمريكية. متخصص في الجيوبوليتيك ويطلق عليه لقب «أبو علم الاحتواء».

6 – Nicholas Spykman, America's Strategy in World Politics-The United States and the Balance of Power, (New Brunswick, Transaction Publishers, 2008), p. 59

7 – Zbegnaw Brzezinski, The Grand Chessboard, American Primacy and its Geostrategic Imperatives. P. XIV

المتحدة بعد حزيران 2004. يعود السبب إلى أن فرنسا حين عارضت الغزو الأميركي للعراق في العام 2003 كانت تراهن على أن العراق سيصمد لشهور عدة ما سيخرج الولايات المتحدة ويجعلها تلجأ لفرنسا للخروج من حمام الدم في العراق<sup>8</sup>.

إلا أن الأميركيين تمكنوا من حسم المعركة بسرعة، وبات الرئيس جورج بوش يقاطع الرئيس الفرنسي شيراك ويسعى لعزله دولياً. لكن ما أفاد شيراك كان تصاعد

المقاومة العراقية ضد الاحتلال الأميركي

ما جعل بوش يلجأ إلى شيراك بغية توسيع

التحالف الدولي لتوفير الغطاء للاحتلال

الأميركي. وتقاطعت المصالح الأميركية-

الفرنسية بالضغط على سوريا لعزل كل من

حزب الله وإيران.<sup>10</sup> وقد وصل المشروع

الأميركي في المنطقة إلى ذروته في العام 2006

مع العدوان الإسرائيلي على لبنان في تموز من ذلك العام.

لكن ما لم يكن في الحسبان هو جاهزية المقاومة الكبيرة

لصد العدوان الإسرائيلي وهزيمته.

لم يكن النصر الأميركي في أفغانستان وخصوصاً في العراق

حاسماً. فإذا بإيران وسوريا تدعمان المقاومة العراقية

وتجعلان الاحتلال مكلفاً لواشنطن. وإذا بروسيا تدعم

انقلابات مضادة تحاصر الرئيس ميخائيل ساكاشفيلي في

جورجيا وتزيح فيكتور يوشينكو عن السلطة في أوكرانيا.

وترافق ذلك مع أزمة اقتصادية في الولايات المتحدة

كانت العامل الأبرز في انتخاب باراك أوباما كأول رئيس

عليه الغرب بقيادة الولايات المتحدة إلى نظام متعدد الأقطاب.

مع بزوغ فجر الألفية الجديدة كان على الأميركيين أن يتخذوا قرارات مصيرية لجهة حسم موضوع زعامتهم

للعالم من دون منازع. وكما كانت الحرب العالمية الثانية

ضرورة لخلق مجالات حيوية للزيادة السكانية وللصناعة

الألمانية شكلت الحرب على الإرهاب ضرورة لكي تتمكن

الولايات المتحدة من السيطرة على الشرق الأوسط. وقد

اتخذت الولايات المتحدة من هجمات

الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001 على

برجي التجارة في نيويورك ذريعة لاجتياح

أفغانستان والعراق. وكانت الخطوة التالية

هي العمل على إسقاط النظام في إيران وفي

سوريا أو تطويعهما حتى تستكمل السيطرة

على الشرق الأوسط. وكانت الانقلابات

التي دعمتها الولايات المتحدة في جورجيا وأوكرانيا

لحماية أجنحة جبهتها في الشرق الأوسط.

لقد هدف المشروع الأميركي إلى السيطرة على الشرق

الأوسط الكبير من المحيط الأطلسي إلى حدود الصين

لتحقيق جملة أهداف. فعبر السيطرة على هذه المنطقة

الحيوية كان الأميركيون يريدون عزل أوروبا عن أفريقيا،

ومنع تقارب محتمل بين أوروبا وروسيا، ومنع روسيا

من الوصول إلى الخليج والمحيط الهندي. وكانت فرنسا

تحولت من قوة تحاول مواجهة الولايات المتحدة في

الشرق الأوسط قبل العام 2004 إلى قوة رديفة للولايات

مع أوباما بات

الأميركيون واعين

لمحدودية قوتهم

8 - Vincent Nouzille, Dans le Secret Des Presidents, (Paris: Fayard, 2010), pp. 395 - 408

9 - Nouzille, pp. 409 - 419

10 - Nouzille, pp. 444 - 451

السياسة الجديدة لتركيا في مرحلة ما بعد الحرب الباردة. يرى أوغلو أن هنالك ثلاث دوائر تشكل عناصر أساسية من عناصر الأمن القومي التركي. ويعتبر أنه في العصر الحالي يجب على تركيا أن تخرج من السياسة التقليدية التي اتبعتها عقب إنشاء الجمهورية بالانكفاء وراء حدودها وأن عليها أن تلعب سياسة خارجية أكثر دينامية<sup>11</sup>. كما يعتبر أن على تركيا أن تدافع عن وجودها في تراقيا للدفاع عن اسطنبول، وأن هذا لا يبدأ بالحدود مع اليونان وبلغاريا بل يمتد إلى الأدرياتيكي، وبالتالي فإن على تركيا أن توثق علاقاتها مع ألبانيا وكوسوفو والبوسنة مع اعتماد ألبانيا كقاعدة لإطلاق النفوذ التركي في البلقان<sup>12</sup>. كذلك يعتبر أوغلو أن الدفاع عن شرق الأناضول لا يكون بالوقوف على الحدود مع أرمينيا وإيران بل يبدأ بالشواطئ الغربية لبحر قزوين، وبالتالي فإن أذربيجان تشكل قاعدة الانطلاق للتأثير التركي في منطقة القوقاز<sup>13</sup>. كذلك يرى أن الدفاع عن شرق الأناضول لا يتوقف عند الحدود مع سورية والعراق بل يتعداها إلى الخط الممتد من كركوك والموصل في شمال العراق وفي شمال سورية. ويرى أن الشرق الأوسط يشكل الحديقة الخلفية لتركيا ويدعو بلاده إلى لعب دور في هذه المنطقة<sup>14</sup>. ويقر بأن هنالك توافق تام في كل هذه الأمور مع المصالح الجيوستراتيجية الأميركية. وكانت سورية هي المدخل الذي يمكن لتركيا أن تعود عبره إلى الشرق الأوسط.

منذ القرن السادس عشر وحتى أوائل القرن التاسع عشر كانت إيران الشيعية تحتوي الدولة العثمانية السنية

أسود في التاريخ الأميركي. ومع أوباما بات الأميركيون واعين لمحدودية قدرتهم فإذا بهم يضغظون لفرض اتفاق سياسي مع حكومة عراقية موالية لهم تخفف عن كاهل قواتهم حتى يتاح لهم التركيز على شد قبضتهم على أفغانستان.

وقد أوضح ملامح التوجه الأميركي في المنطقة بالدرجة الأولى التقرير الصادر عن مجلس الأمن القومي الأميركي 2009 الذي أسقط الإسلام من دائرة استهدافاته (وهو ما كان قائماً منذ 11 أيلول/ سبتمبر 2001) برغم أنه أبقى على اعتباره لتنظيم القاعدة عدواً يجب مواصلة محاربه. ومرة جديدة تستفيد الولايات المتحدة من التاريخ، وهنا برزت الحاجة الأميركية للدور التركي في العالم العربي تحديداً.

## ثانياً: تركيا ونقل الصراع إلى داخل الحضارة الإسلامية

في تركيا كان حزب العدالة والتنمية الإسلامي قد وصل إلى السلطة في العام 2002 مؤذناً بنهج جديد في السياسة التركية. وكان وزير الخارجية التركي أحمد داود أوغلو الذي أصبح لاحقاً رئيساً للوزراء أهم من رسم معالم

بالنسبة للولايات المتحدة فإن دور تركيا في المنطقة سيضع في مواجهة «إسلام» إيران «إسلاماً» لا يقل عراقية عنه يغرف من إرث الدولة العثمانية

11 - أحمد داود أوغلو، العمق الاستراتيجي، موقع تركيا ودورها في الساحة الدولية، ترجمة محمد تلجي وطارق عبد الجليل، الدوحة: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2010، ص 75-81

12 - أوغلو، العمق الاستراتيجي، ص 146-150

13 - أوغلو، العمق الاستراتيجي، ص 150-155

14 - أوغلو، العمق الاستراتيجي، ص 155-158

حماس من إيران يشكل اختراقاً إيرانياً جدياً للجهة التي كانت الولايات المتحدة تحاول إقامتها بمنع تسلل روسيا أو الصين عبر إيران إلى البحر المتوسط. فبالنسبة للجيوستراتيجيا الأميركية لم يكن من المسموح لآسيا الممثلة بالصين وروسيا أن تصل إلى البحر المتوسط أو المياه الدافئة. وكانت إيران حققت اختراقات مهمة على الصعيد الاستراتيجي عبر ثلاثة محاور جعلتها تطل على البحرين المتوسط والأحمر. هنا كان التعويل الأمريكي على أن تنجح تركيا بجذب حركات الإسلام السني السياسي إلى مدارها بعيداً عن مواجهة مشاريع الهيمنة والاحتلال.

### ثالثاً: صعود الصين وعقدة الطاقة والمواصلات في غرب آسيا

منذ القدم عندما كانت الصين تنهض وتزدهر كانت ترنو بأنظارها ناحية بحر الصين الجنوبي جنوب شرق الصين، وناحية وسط آسيا التي كانت تعتبر عقدة المواصلات التجارية البرية عبر آسيا التي اصطلح على تسميتها بطريق الحرير. بقيت الصين معزولة عن العالم بشكل كبير حتى منتصف القرن الثامن عشر حين شنت بريطانيا عليها حرباً لإجبارها على فتح أسواقها أمام تجارة الأفيون المنتج في المستعمرات البريطانية وذلك في العام 1840 ما أدى إلى بدء وقوع الصين تحت الهيمنة الغربية في ما سيعرف بقرن الدّل.<sup>15</sup>

وقرن الدّل هذا قدر له أن ينتهي مع انتصار الثورة الصينية بقيادة ماو تسي تونغ في العام 1949 وإقامة

والعكس بالعكس. إذ لم لا تحتوي تركيا الإسلامية الثورة الإسلامية في إيران في المرحلة المقبلة؟ بالنسبة للولايات المتحدة فإن دور تركيا في المنطقة سيضع في مواجهة «إسلام» إيران «إسلاماً» لا يقل عراقه عنه يغرف من إرث الدولة العثمانية، أقوى دولة في العالم حتى أواسط القرن الثامن عشر. وسيكون لتركيا هذه جاذبية كبيرة بين المسلمين السنة في سورية، آخر دولة عربية تخرج من تحت مظلة العثمانيين في العام 1918، وهو ما لم تتمكن من تحقيقه السعودية. كما ستكون تركيا القوة الجاذبة للإسلاميين في مصر (الذين يعتبرون أنفسهم أكثر عراقه من إسلامي السعودية لكن أقل عراقه من إسلامي تركيا) والإسلاميين في السودان. هنا بيت القصيد، فالسودان تحول مؤخراً إلى القاعدة التي تنطلق منها الصين لتحقيق اختراقات في القارة الأفريقية. وكان الدعم الصيني المبطن للرئيس عمر حسن البشير هو الذي مكنه حتى الآن من مواجهة الضغوط الغربية. وإذا كانت واشنطن فشلت حتى الآن في إطاحة النظام السوداني عبر الحصار الدولي فلم لا تتم الاستعانة بإسلامي السودان بزعامه حسن الترابي لإقفال الطريق أمام الصين؟

خلال شتاء العام -2008 2009 تعرض قطاع غزة لحملة عسكرية إسرائيلية كانت تهدف إلى القضاء على حركة حماس. كانت «إسرائيل» قلقة من الدعم الذي تلقاه حركة حماس من إيران ومن حالة المقاومة التي تمثلها هذه الحركة على الساحة الفلسطينية ما يعرقل جهود «إسرائيل» لفرض شروطها للسلام على الفلسطينيين. وكان الأميركيون يدعمون هذا العدوان الإسرائيلي على غزة لأنهم يعتبرون أن الدعم الذي كانت تلقاه حركة

مسمى طريق الحرير. لذا قامت الصين بالتعاون مع روسيا وكازاخستان وقرغيزستان وطاجيكستان بإنشاء مجموعة الخمسة في العام 1996 التي تحولت في حزيران من العام 2001 إلى منظمة شنغهاي للتعاون بعد انضمام أوزبكستان إليها. ووفقاً لدستور المنظمة فإن هدفها الرئيسي هو حفظ الأمن والاستقرار في منطقة وسط آسيا ومكافحة الحركات الانفصالية المنطلقة منها.<sup>19</sup>

وأهمية منظمة شنغهاي للتعاون تكمن في أنها تحتل ستين بالمئة من مساحة أوراسيا وتضم ربع سكان العالم. وإذا أخذنا في الاعتبار الدول التي تتمتع بصفة مراقب وهي أفغانستان والهند وإيران ومنغوليا وباكستان فإن منظمة شنغهاي للتعاون تضم ثمانين بالمئة من مساحة أوراسيا ونصف سكان العالم. وأرست المنظمة هيئة خاصة تعنى بمكافحة الإرهاب. والجدير ذكره أن طلب الولايات المتحدة الانضمام إلى المنظمة رفض في العام 2006، كما رفض طلبها في أن تكون عضواً مراقباً. وفسر المحللون ذلك بخشية الصين وروسيا من تمدد نفوذ واشنطن إلى وسط آسيا.<sup>20</sup> أما المنطقة الأخرى التي تحظى باهتمام الصين فهي منطقة جنوب بحر الصين نظراً لأهميتها في الربط بين المحيط الهندي والمحيط الهادئ من جهة، ولدورها كمنفذ للصين على طرق الملاحة البحرية. ويرى

جمهورية الصين الشعبية. وتمكن جيل ماو من إعادة وضع الصين على الخريطة العالمية، لكن خروج الصين إلى العالم لم يحصل بشكل كبير إلا بعد وفاة ماو في العام 1976 ووصول دينغ كسياو بينغ إلى السلطة في العام 1978. فسارع دينغ للانفتاح على الولايات المتحدة.<sup>16</sup> أما على الصعيد الاقتصادي فقد عمد لتطبيق خطة اقتصادية مبنية على التصور الذي وضعه شوين لاي في العام 1975 وتقوم على التركيز على التصنيع ثم الانتقال إلى التنمية المتوازنة في القطاعات الاقتصادية الأربعة وهي الزراعة والصناعة والدفاع والتكنولوجيا.<sup>17</sup> إضافة إلى ذلك بدأت الصين بإقامة مناطق اقتصادية حرة للانفتاح على الاقتصاد العالمي، وبناء على ذلك نما الاقتصاد الصيني في الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي بمعدلات تتراوح بين 8 و 10 بالمئة سنوياً.<sup>18</sup> وما إن انطلقت الصين اقتصادياً حتى بدأت تسعى لتدعيم هذه الانطلاقة سياسياً. وكان لدى الصين تاريخياً قلق من منطقة وسط آسيا التي كانت مصدر معظم الغزوات التي تعرضت لها، كما أنها كانت المنطقة التي تنطلق منها الصين لتدعيم التجارة في البر الآسيوي تحت

أهمية منظمة  
شنغهاي للتعاون  
تكمن في أنها  
تحتل ستين  
بالمئة من مساحة  
أوراسيا وتضم ربع  
سكان العالم.

16 – Chi Kwan Mark, China and the world since 1945, (London: Routledge, 2011), p. 96

17 – Alfred K. Ho, China's Reforms and Refomers, (Westport: Praeger, 2004), p. 81

18 – Chi Kwan Mark, op. cit., p. 97

19 – Website of Shanghai Cooperation Organization at:

<http://www.sectsc.org/EN123/brief.asp> accessed on 23 – 2 – 2015

20 – Norling, Nicklas and Niklas Swanström. "The Shanghai Cooperation Organization, Trade, and the Roles of Iran, India and Pakistan." Central Asian Survey Volume 26, Issue 3 (2007): pp. 429432-429) 444-).



كذلك استهدفت الولايات المتحدة الصين في منطقة أخرى ذات أهمية كبرى بالنسبة لها وهي منطقة جنوب بحر الصين. ويعتبر المسؤولون الصينيون أن الولايات المتحدة تحاول خلق المشاكل بين الدول المشاطئة لجنوب بحر الصين.<sup>24</sup>

وتبرز أهمية غرب آسيا للصين من خلال موقفها من الدولة السورية في حربها المفتوحة ضد الإرهاب وداعميه. تاريخياً كانت الصين تنزع إلى الانعزال والتقوقع داخل حدودها «لأنه ما من شيء إلا وكانت تملكه» وهي لم تكن بحاجة لشيء من الخارج». كان أول توحيد للقارة الأوراسية على يد المغول انطلاقاً من الصين. وأدى ضمور التجارة إلى تفكك الإمبراطورية المغولية وانفراط عقدها إلى دويلات عدة ضعيفة بعد قرن ونصف القرن من تأسيسها. وبعد انهيار الحكم المغولي في الصين سيطرت أسرة مينغ على السلطة بعد تمرد قادته ضد آخر حاكم مغولي. وأرسل الإمبراطور زو دي بأسطول طاف أرجاء العالم في العام 1422 ليعود بعدها إلى الصين. وبناء لأوامر الإمبراطور تم تفكيك الأسطول «لأنه ليس في العالم ما تحتاج إليه الصين» وعادت الصين إلى عزلتها.<sup>25</sup>

هذه العزلة هي التي أدت بالقوى الغربية إلى الالتفاف على أقوى قوة في آسيا محولة إياها في القرن التاسع عشر

محللون أن الولايات المتحدة تسعى لمنع الصين من بسط نفوذها على تلك المنطقة وذلك بتدعيم علاقاتها مع الدول المشاطئة لتلك المنطقة بالإضافة إلى اليابان وكوريا الجنوبية وذلك لمنع الصين من الخروج إلى طرق الملاحة البحرية.<sup>21</sup>

في مواجهة احتمالات صعود الصين كقوة أولى في العالم، حاولت الولايات المتحدة اختلاق أزمات لها عبر تشجيع الحركات الانفصالية في منطقة التيببت وفي منطقة جينجيناغ ذات الغالبية المسلمة في شمال غرب الصين. ففي تموز 2009 اندلعت مواجهات عنيفة بين المسلمين الويغور والبوذيين الهان. واعتبرت الحكومة الصينية أن هذه المواجهات تسببت بها حركات سلفية متطرفة لاقت تشجيعاً من أفغانيين وباكستانيين. وأصدر الحزب الشيوعي الصيني بياناً اعتبر فيه أن الاستقرار في جينجيناغ هو أمر حيوي جداً بالنسبة للصين وأن الأحداث نتجت عن نشاط قوى إرهابية وانفصالية متطرفة.<sup>22</sup> وواجهت الصين حملة غربية تمثلت بالانتقادات التي وجهت لها من قبل الأمين العام للأمم المتحدة بأن كي مون ورئيس الوزراء الأسترالي كيفين رود والمستشارة الألمانية أنجيلا ميركل والناطق باسم الخارجية الأمريكية إيان كيلي.<sup>23</sup>

21 – Robert D. Kaplan, Asia Cauldron: The South China Sea and the End of a Stable Pacific, New York: Random House, 2014

22 – “Xinjiang protesters to be punished (with utmost severity)”, TIBETAN review AUGUST 2009, p. 28

23 – UN Chief urges respect for right to protest, others follow suit, TIBETAN REVIEW AUGUST 2009, p. 26

24 – See for example: China accuses US of adding to regional tensions, The Guardian, February 9 – 2014, at <http://www.theguardian.com/world/2014/feb/09/china-accuses-us-south-china-sea>; US accused of inciting South China Sea tensions, RT, August 11, 2014, at <http://rt.com/usa/179512-asean-kerry-wang-tensions/>; Saibal Dasgupta, US commander accuses China of creating artificial landmass in South China Sea, The Times of India, April 3, 2015. At <http://timesofindia.indiatimes.com/world/china/US-commander-accuses-China-of-creating-artificial-landmass-in-South-China-Sea/articleshow/46790380.cms>,

25 – Gavin Menzies, 1421, The Year China Discovered the World, London: Bantam Press, 2003

للصين ذات الغالبية المسلمة. وهذا يعطي استقلال سورية عن الغرب أهمية مضاعفة للصين. وهذا ما يفسر إعلان وزارة الخارجية الصينية أن «سورية دولة مهمة جداً في الشرق الأوسط ويجب أن تبقى مستقرة وأن حل المشكلات فيها يجب أن يبقى داخلياً وألاً يحصل تدخل خارجي في الشؤون الداخلية السورية يؤدي إلى تعقيد الأمور»<sup>26</sup>.

#### رابعاً: روسيا وموازنة الغرب

في مواجهة محاولات الهيمنة الأميركية سعت الصين لإقامة تحالف مع روسيا التي تعتبر نفسها مستهدفة من قبل الولايات المتحدة والغرب عموماً. والجدير ذكره أنه منذ تحرر الروس من الهيمنة المغولية عليهم بعد معركة كوليكوفو في العام 1380 حكمهم هاجسان، الأول ضمان أمنهم في منطقة وسط آسيا، وضمان مقعد لهم في نادي الدول الأوروبية. ومع حلول منتصف القرن السابع عشر كانت روسيا قد أمّنت نفسها في منطقة وسط آسيا بعد وصولها إلى المحيط الهادئ شرقاً وتوقيعها معاهدة نيرشينسك في العام 1648 لتقاسم النفوذ مع الصين في منطقة وسط آسيا. مما أهلها لتوجيه أنظارها غرباً نحو أوروبا الشرقية.

وقد فشل نابوليون في غزو روسيا وبنتيجة هذا الفشل تمكنت القوات الروسية مع تحالف عريض من النمسا وبروسيا وبريطانيا من إطاحته في العام 1815. وبمقتضى مقررات قمة فيينا في ذلك العام باتت روسيا القوة الأولى في منطقة شرق أوروبا، وبالتالي أصبحت روسيا قوة أوروبية معترف بها من باقي القوى. في هذا الوقت تابعت

إلى رجل آسيا المريض. وفي العصر الحديث لم تعد الصين تملك رفاهية اتخاذ قرار بالانعزال عن العالم، فبنيتها الصناعية تحتم عليها الحصول على النفط كما تحتم عليها إيجاد أسواق لتصريف منتجاتها. وإسقاط النظام في سورية يعني محاصرة إيران تمهيداً لإسقاط النظام فيها. وهذا يعني بالتالي إغلاق الشرق الأوسط في وجه الصين. وفي ظل محاصرة الصين بحرياً عبر اليابان وكوريا الجنوبية وتايوان ودول جنوب شرق آسيا فإن خروج الصين إلى البحار بات صعباً من دون رضى أميركي. ولا يمكن لأي قوة تطمح إلى دور عالمي أن تقبل بأن تكون طرق مواصلاتها تحت رحمة قوة أخرى خصوصاً إذا كانت منافسة لها.

وبالتالي بات خروج الصين إلى العالم يمر عبر الشرق الأوسط، تماماً كما حصل مع المغول قبل ثمانية قرون بعد أن سيطروا على الصين. فبرّ الشرق الأوسط يمكن من الوصول إلى أفريقيا، وهي المنطقة التي تحاول الصين الانفتاح عليها لغناها بالموارد الطبيعية. وهذا يفسر سر العلاقة الطيبة مع السودان الذي بات البوابة الصينية إلى أفريقيا. وبالتالي فإن الشرق الأوسط يجب أن يبقى مفتوحاً أمام الصين لذا فإن على إيران أن تصمد في مواجهة الضغوط الغربية كما أن على سورية أن تصمد في مواجهة محاولات فرض الوصاية الغربية عليها. وأدى وصول الأميركيين إلى حدود الصين الغربية بعد اجتياح أفغانستان في العام 2002 إلى إثارة مشكلة الأقليات المسلمة في منطقة غرب الصين ما يعطي مثلاً إضافياً على أهمية أن يكون الشرق الأوسط تحت السيطرة الكاملة للولايات المتحدة لأنه من هذا الشرق الأوسط يمكن للأميركيين الانطلاق لمدّ نفوذهم داخل المناطق الغربية



يعتبرها الروس مهددة لأنهم القومي. وأبقى الغربيون على حلف الناتو رغم انتهاء الحرب الباردة ووسعوا عضويته لتشمل دولاً في أوروبا الشرقية قريبة من الأراضي الروسية. في العصر الحديث كذلك سعوا لمد نفوذهم في القوقاز ووسط آسيا، ما جعل روسيا تسعى للتقارب مع الصين وإيران المتضررتين من هذه السياسات. لم تعد الصين تملك رفاهية اتخاذ قرار بالانعزال في العام 1999 أصبح فلاديمير بوتين رئيساً للوزراء في روسيا ليتولى الرئاسة في مطلع العام 2000 خلفاً للرئيس بوريس يلتسين الذي استقال من منصبه لأسباب صحية.<sup>31</sup> وفي عهد بوتين تقرب الروس من الصينيين وأسسوا معهم منظمة شنغهاي للتعاون. وعارض بوتين الغزو الأميركي للعراق في العام 2003. ودعم الأميركيون انقلابات في كل من أوكرانيا وجورجيا وقرغيزستان بين عامي 2003 و2005. وما لبث الرئيس الأوكراني الموالي للغرب يوتشينكو أن طالب بالانضمام إلى حلف الناتو ما أثار حفيظة الروس لما فيه من تهديد لأنهم القومي فقاموا بالرد في العام 2008 ووجهوا ضربة عسكرية ضد جورجيا أدت إلى تحييدها في ميدان التنافس الأميركي الروسي في القوقاز. كذلك قام الروس بدعم انتخاب

روسيا مسعاها في الوصول إلى المياه الدافئة عبر التوسع في منطقتي وسط آسيا والقوقاز. وأقلق هذا الأمر البريطانيين الذين حاولوا استخدام أفغانستان وفارس والدولة العثمانية كمناطق عازلة تحول دون وصول الروس إلى الهند التي أضحت مستعمرة بريطانية، ودون الوصول إلى المحيط الهندي الواقع تحت النفوذ البريطاني.<sup>27</sup>

خلال الحرب الباردة تواجهت الولايات المتحدة والغرب مع الاتحاد السوفياتي وكتلة الدول الاشتراكية. وسعت الولايات المتحدة إلى تطويق السوفيات بسلسلة من الأحلاف العسكرية في الوقت الذي كانت تسعى فيه إلى استهدافهم في شرق أوروبا من ناحية وفي وسط آسيا من ناحية أخرى. في المقابل حاول السوفيات فك الطوق عنهم خصوصاً عبر نسج علاقات قوية مع الزعيم المصري جمال عبد الناصر مما مكّنهم من الدخول إلى أفريقيا. وقد شكل انقلاب السياسة المصرية بعد وفاة عبد الناصر ضربة قوية للنفوذ الروسي في الشرق الأوسط.<sup>28</sup> أدى ذلك إلى إطلاق يد الأميركيين في توجيه سياسات معادية للروس في بولندا وفي أفغانستان.<sup>29</sup> وأدت هاتان الأزمات إضافة إلى عوامل ضعف داخلية إلى إنهاك الاتحاد السوفياتي ثم انهياره في العام 1991 تاركاً الساحة الدولية للأميركيين وحدهم.<sup>30</sup>

رغم انسحاب روسيا من المواجهة مع الولايات المتحدة استمر الأميركيون ومعهم الغرب في توجيه سياسات

27 – Marie Platt Parmele, A Short History of Russia, (New York: CHARLES SCRIBNER'S SONS, 1907), Chap XXI

28 – Steven A. Cook, The Struggle for Egypt: From Nasser to Tahrir Square, (Oxford: Oxford University Press, 2012), p. 132

29 – See Robert Lacey, Inside the Kingdom: Clerics, Modernists, Terrorists, and the Struggle for Saudi Arabia, (London: Penguin Books, 2009), pp. 63 – 68

30 – Vladislav M. Zubok, A Failed Empire: The Soviet Union in the Cold War from Stalin to Gorbachev, (Chapel Hill: The University of North Carolina Press, 2007), p. 304

31 – Charles J. Shields, Vladimir Putin, (New York: Chelsea House Publishers, 2007), pp. 9– 50

تطمح إليه منذ أيام بطرس الأكبر. وأعلنت روسيا عن استيائها من «الخديعة» التي تعرضت لها على يد الناتو في ما يتعلق بإصدار قرار دولي بحجة حماية المدنيين في ليبيا من العقيد معمر القذافي ليتحول هذا القرار إلى ذريعة للتدخل العسكري لفرض وصاية غربية على ليبيا ما شكل ضربة لروسيا ومصالحها الحيوية في ما يتعلق بإطالتها على غرب المتوسط عبر طرابلس الغرب. وبالتالي أعلنت بقوة عزمها على معارضة أي قرار دولي يصدر بحق سورية، وقد نجحت حتى الآن في عرقلة صدور أي قرار في هذا الشأن. كما أعلنت لوفود من المعارضة السورية زارت موسكو عن معارضتها لأي تدخل دولي ولأي زعزعة للنظام، ودعت أعضاء الوفود المعارضة إلى التحاور مع النظام.

## خامساً: إيران والحاجة إلى المشرق العربي

أما القوة الآسيوية الثالثة التي صعّدت في العقدين الأخيرين فهي إيران. وتجدر الإشارة إلى أنه منذ أيام الأخمينيين كانت الإمبراطوريات التي تسيطر على الهضبة الفارسية تنزع للعب دور صلة الوصل بين شرق آسيا وشرق المتوسط، وبالتالي كانت فارس أو إيران تزدهر حين تنجح في لعب هذا الدور، فيما كانت تضمّر وتتعرض لأزمات داخلية حين تفشل في ذلك.

وكانت مصر عقدة التجارة البحرية الموصلة بين البحر الأسود وشرق المتوسط من ناحية، والبحر الأحمر والمحيط الهندي وجنوب شرق آسيا من ناحية أخرى. وكانت بلاد الشام هي نقطة التقاطع بين الطريق البحري هذا والطريق البري الذي تسيطر عليه الصين وإيران من ناحية أخرى، ما يفسر الصراع الطويل الأمد الذي دار

حليفهم في أوكرانيا ميخائيل يانوكوفيتش في العام 2010 ما عرقل انضمام أوكرانيا إلى حلف الناتو والاتحاد الأوروبي.

رد الأميركيون وحلفاؤهم الغربيون في العام 2014 بدعم انقلاب على يانوكوفيتش ما أدى إلى اندلاع أزمة في أوكرانيا، خصوصاً بعد مطالبة أركان النظام الجديد فيها بتسريع الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي والناتو، فرد الروس بدعم المعارضين للحكم الجديد في شرق البلاد كما دعموا مطلب الاستقلال الذي تقدمت به جمهورية القرم التي طالب سكانها بعد ذلك بالانضمام إلى روسيا. وفي محاولة لفك عزلتها تقاربت روسيا مع الصين وإيران في إطار منظمة شنغهاي للتعاون. ولمنع الولايات المتحدة من حصر روسيا والصين وإيران في البر الأوراسي قامت موسكو وبكين بالانضواء مع نيو دلهي وجنوب أفريقيا والبرازيل في إطار دول منظمة البريكس. ويلعب تكتل دول البريكس دوراً في مواجهة الهيمنة الأميركية الغربية على العالم. فحقيقة وقوع الهند وجنوب أفريقيا والبرازيل على الطريق الذي سلكه ماجيلان قبل خمسة قرون يجعلنا نستنتج أن روسيا والصين، في الوقت الذي تواجهان فيه الهيمنة الغربية في أوراسيا تقومان بحركة التفاف كبيرة عبر طريق ماجيلان على القواعد العسكرية ومناطق النفوذ الأميركية في عملية تهدف إلى كسر طوق من ناحية والوصول إلى طرق الملاحة البحرية من ناحية أخرى.

إن قلب النظام الذي نادى به قسم كبير من المتظاهرين في سورية كان معناه أن تحسر روسيا حليفاً مهماً لها في الشرق الأوسط. ذلك أن العلاقة مع سورية شكلت لبنة أساسية في الاستراتيجية الروسية في الشرق الأوسط منذ ما قبل عهد الرئيس حافظ الأسد. وأتاحت هذه العلاقة لروسيا قاعدة راسخة على ضفاف شرقي المتوسط وهو ما كانت

في عهد الشاه محمد رضا بهلوي حاولت إيران لعب دور إقليمي من خلال عضويتها في حلف بغداد تحت مظلة غربية. لكن كان عليها أن تنتظر الثورة الإسلامية في العام 1979 لتحاول استعادة دورها الإقليمي ولعب دور صلة الوصل بين شرق آسيا وشرق المتوسط. واللافت هنا أن الثورة الإسلامية في إيران تزامنت مع وصول دينغ كسيانغ بينغ إلى السلطة في الصين وإخراجه لها من عزلتها. ومنذ اليوم الأول للثورة الإسلامية حاولت الولايات المتحدة حصارها عبر وسائل عدة منها تشجيع الرئيس العراقي صدام حسين على شن حرب ضدها دامت ثماني سنوات وأنهكت إيران والعراق. وفي مواجهة الحصار المفروض على إيران، تمكنت من عقد علاقة تحالف مع سورية بقيادة الرئيس حافظ الأسد. وبعد انهيار الاتحاد السوفياتي تقاربت إيران مع الصين وروسيا لمواجهة مساعي الهيمنة الأميركية في العالم.

عندما اندلعت الاحتجاجات في سورية 2011، كانت إيران القوة الأولى التي دعمت الرئيس السوري سياسياً بشكل مطلق. أثبت التحالف مع دمشق منذ أيام الرئيس حافظ الأسد أنه رصيد كبير لإيران في المنطقة. وأعلنت وزارة الخارجية الإيرانية أن الأحداث في سورية «تأتي في إطار مؤامرة غربية لزعزعة حكومة تؤيد المقاومة ضد «إسرائيل»<sup>36</sup>. وأعربت طهران عن معارضتها لأي تدخل خارجي في الشؤون السورية.<sup>37</sup> واعترض المسؤولون

بين ممالك مصر وتتار إيران على بلاد الشام والذي استمر لقرن من الزمن.<sup>32</sup> عاشت فارس في حال من الفوضى لقرن من الزمن حتى العام الذي تمكن فيه الشاه إسماعيل الصفوي من الاستيلاء على تبريز ثم باقي الهضبة الإيرانية ليوجه بعدها أنظاره غرباً بغية الوصول إلى شرق المتوسط عبر شرق الأناضول. لكن حظه العاثر وضعه في مواجهة السلطان العثماني سليم الأول الذي هزمه في معركة تشالديران وانتزع منه تبريز وأذربيجان ومنطقة قزوین عازلاً عنه طريق التجارة البرية في شمال إيران والموصل بين شرق آسيا ووسطها مع شرق المتوسط. ولعقود تلت عاش الصفويون في حال الضعف حتى صعود نجم الشاه عباس في العام 1580. وفي العام 1599 تمكن الشاه عباس من الانتصار على الأوزبيك وانتزع منطقة خراسان منهم.<sup>33</sup> وفي العام 1603 هزم الشاه عباس العثمانيين لينتزع منهم تبريز وأذربيجان وأجزاء من شرق الأناضول ووسط العراق.<sup>34</sup> وحاول إقامة تحالف مع الإسبان لينتزعوا بلاد الشام منهم وبالتالي انتزع تجارة المتوسط من العثمانيين، لكن الإسبان لم يتجاوبوا معه وخبثوا آماله في إيصال تجارة البر الأوراسي إلى شرق المتوسط.<sup>35</sup> وبعد الشاه عباس عادت إيران إلى حال العزلة والضعف التي ميزتها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وصولاً إلى وقوعها تحت النفوذ البريطاني والروسي خلال النصف الأول من القرن العشرين.

32 – Ibid, pp. 2627–

33 – David Blow, Shah Abbas, the Ruthless King Who Became an Iranian Legend, (London: I.B. Tauris, 2009), p. 47

34 – Ibid, pp. 75 – 84

35 – Ibid, pp. 103

الدعم السوري تعني قضم ظهر المقاومة الإسلامية التي ستصبح محاصرة من البر بعدما تم فرض حصار بحري على لبنان من قبل القوى الغربية عقب العدوان الإسرائيلي على لبنان في العام 2006.

الإيرانيون على الاتهامات الغربية لطهران بمساعدة أجهزة الأمن السورية على قمع التظاهرات<sup>38</sup>. كما تجل هذا الأمر في الموقف الداعم للأسد الذي اتخذ حزب الله على لسان أمينه العام السيد حسن نصر الله<sup>39</sup>، لأن خسارة

### خاتمة:

لكن التكتلات التي نشأت في مواجهة الولايات المتحدة وحلفائها الغربيين أخذت تفرض نفسها على الساحة، من منظمة شنغهاي للتعاون بزعامة الصين وروسيا، وقريباً إيران، إلى منظمة دول البريكس بعضوية روسيا وإيران ومعها الهند والبرازيل وجنوب أفريقيا. ويأتي هذا في ظل انتقال مركز الثقل الاقتصادي إلى المحيط الهندي لأول مرة منذ القرن السادس عشر مع محاولات القوى الآنفة الذكر النفاذ إلى طرق المواصلات البحرية وتحويلها بعيداً عن الهيمنة الأمريكية. ويسرع عملية الانتقال هذه تراجع الثقل الاقتصادي تدريجياً لأوروبا والولايات المتحدة. لكن تبقى المشكلة في الهيمنة الأمريكية على طرق المواصلات هذه عبر سيطرتها على منطقتي المتوسط والشرق الأوسط بنسبة ثمانين بالمئة. ثم إن خروج مصر من هذه الهيمنة في ظل تقاربها مع روسيا سيؤدي إلى إضعاف الهيمنة الأمريكية على الشرق الأوسط وعلى طرق المواصلات البحرية وخصوصاً في المحيط الهندي ويعطي زخماً للتكتلات المعارضة للهيمنة الأمريكية.

خلاصة الموضوع أن الأزمة التي نشهدها حالياً في منطقة الشرق الأوسط ناجمة عن تحولات في موازين القوى العالمية التي تؤذن بتحول النظام الدولي إلى نظام متعدد الأقطاب سيشهد للمرة الأولى منذ مئتي عام نهاية الهيمنة الغربية المطلقة على المقدرات العالمية. ويخشى الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة من صعود قوة أوراسية تمثل هذه المرة بالصين وروسيا اللتين أسستا منظمة شنغهاي للتعاون التي تشهد قريباً انضمام إيران بشكل كامل لعضويتها. ولأن هذه المنظمة ستسيطر على قلب أوراسيا، وتمتلك إمكانيات اقتصادية وبشرية هائلة، فإن الولايات المتحدة تحاول الحد من إمكانياتها عبر منعها من الوصول بحرية إلى طرق الملاحة البحرية. وهذا ما يفسر السياسات التي تتبعها الولايات المتحدة في شرق آسيا عبر التحالف مع اليابان وكوريا الجنوبية والدول المشاطئة لجنوب بحر الصين ضد الصين، وهذا ما يفسر الأزمة الأوكرانية بين روسيا والغرب، ويفسر الأحداث في منطقة الشرق الأوسط التي تأخذ شكل حروب غير متوازنة أو حروب بالوكالة تقودها جماعات تصنف على أنها إرهابية.

## مصر في سياق الفوضى الإقليمية

خلال ثلاثين عاماً من حكم حسني مبارك (منذ العام 1981 وحتى العام 2011)، كانت مصر مبارك قلقة من هذا «التمدد الإيراني» بمقدار قلق الولايات المتحدة. ففي خلال هذه الفترة تقلص النفوذ المصري إلى حده الأدنى في المشرق العربي، وفي التسعينيات فقدت مصر عنصراً آخر من عناصر أمنها بعد اندلاع الحرب الأهلية في الصومال ما هدد أمن القرن الأفريقي الذي يعتبر أحد عناصر الأمن المصري. وتبع ذلك تهديد منابع النيل بعد المجازر التي حدثت في رواندا وبوروندي على ضفاف بحيرة فيكتوريا ما أفقد الهوتو، حلفاء المصريين والفرنسيين، نفوذهم لحساب التوتسي، حلفاء الأميركيين والإسرائيليين. وتلا ذلك احتلال أريتريا لجزيرة حنيش الكبرى اليمنية بإيعاز من «إسرائيل» ما شكل تهديداً آخر لأمن البحر الأحمر. يضاف ذلك إلى الحصار الذي ضرب على ليبيا خلال التسعينات ما شكل تهديداً لا متداد الأمن القومي المصري غرباً باتجاه شمال أفريقيا.

في التاسع من كانون الثاني/يناير 2011 أجري الاستفتاء على انفصال جنوب السودان وتم التصويت بغالبية ساحقة على هذا القرار. وأتى القرار بضغط من الولايات المتحدة بغية تقليص الدور المصري والفصل بين شمال أفريقيا والبلدان الواقعة جنوب الصحراء الكبرى. وكانت الخطوة التالية هي فصل إقليم دارفور الغني بالنفط عن السودان على أن تليه منطقة شرق السودان التي تشكل امتداداً للمنطقة الجنوبية الشرقية من مصر. وقد شكل هذا التطور حدثاً خطيراً خصوصاً أنه ترافق مع عزم الدول المشاطئة للنيل على المطالبة بحصة أكبر من مياهه من دون الرجوع إلى مصر أو السودان. وترافق هذا التآكل في الأمن القومي المصري مع تراجع خطير في مستوى المعيشة لمعظم المصريين نتيجة السياسات الاقتصادية النيوليبرالية التي قادها الفريق المقرب من جمال مبارك، نجل الرئيس المصري. هذه العوامل اجتمعت لتؤدي إلى الانفجار الذي حدث في الخامس والعشرين من كانون الثاني/يناير 2011. وأدت إطاحة الرئيس التونسي زين العابدين بن علي في 14 كانون الثاني 2011 إلى تشجيع الشباب المصريين على المثابرة على تنظيم أنفسهم للنزول إلى الشارع ومن ثم الإصرار على إزاحة الرئيس حسني مبارك عن الحكم. وقد شكلت الثورة المصرية حدثاً غير متوقع من قبل معظم المراقبين وأخذت الولايات المتحدة على حين غرة وجعلتها ترتبك وتحس بالقلق لأسابيع. وكان عليها أن تتحرك سريعاً لئلا تخرج

مصر عن طوعها عبر القيام بخطوات عدة لاحتواء موجة الاحتجاجات. ففي الحادي عشر من شباط أجبر المجلس العسكري المصري نائب الرئيس عمر سليمان على قراءة بيان يعلن فيه تخلي الرئيس حسني مبارك عن الحكم، وهو الأمر الذي فاجأ مبارك نفسه. بعد ذلك تسلم المجلس العسكري الحكم وبدأ بالتنسيق مع جماعة الإخوان المسلمين والجماعات السلفية لإدارة الإمساك بالشارع المصري. ودخلت المملكة العربية السعودية على الخط عبر تمويل جماعة الإخوان المسلمين والحركات السلفية بمبالغ طائلة. وكان على الولايات المتحدة أن تتحرك سريعاً على المستوى الإقليمي لكيلا يمتد «الحريق المصري» إلى الدول الأخرى الموالية لها. وكانت الاحتجاجات بدأت تندلع في المملكة العربية السعودية وسلطنة عمان ومملكة البحرين والأردن ما بات يهدد النفوذ الأميركي في كل منطقة الشرق الأوسط. لذا سارعت الولايات المتحدة إلى تفعيل استراتيجية إشعال حرائق حول الحريق لاحتوائه عبر تشجيع «الثورات» في النطاقات التي تشكل امتداداً للأمن القومي المصري وهي ليبيا واليمن وسورية. ففي نفس اليوم الذي تمت الإطاحة فيه بمبارك بدأت الاحتجاجات في اليمن للمطالبة برحيل الرئيس اليمني علي عبد الله صالح. وبعد ثلاثة أيام بدأت الاحتجاجات في ليبيا التي تبعتها تدخل حلف شمال الأطلسي في الأحداث الليبية. وبعدها بأيام قليلة بدأت الاحتجاجات في سورية انطلاقاً من درعا. وكان البارز في هذا الموضوع الدور الذي لعبته قناة الجزيرة القطرية في «دعم هذه الثورات». والمعروف أن القناة واقعة تحت نفوذ جماعة الإخوان المسلمين خصوصاً أن أبرز وجوهها ومدرائها بعد العام 2003 معروفون بانتمائهم إلى هذه الجماعة.